هذا التوسط بين الحرية القومية والحرية الذاتية . اللغة إذن مظهر الشاغل الأكبر عند العقاد . لايستطيع العقاد أن يحقق كل مايشتهيه المعاصرون ، ولكن المعاصرين قد يضلون الطريق إذا صنفوا ولاحظوا ، وعددوا أنماط الجمل ولوازم التعبير ، وهم فى شغل عن غاية مستقيمة أو مقياس من مقاييس الحياة .

إن المعاصرين ـ بوجه خاص ـ مولعون بذكر المفارقة بين الشاعر والمجتمع . وكذلك كان العقاد . يقول العقاد فى معرض حديثه عن عبدالله النديم : إن الثورات لم يكن لها قط شاعر يحرضها كما يحرضها الكتاب والخطباء ، وإنما توحى الثورة إلى الشاعر معانى ، ولاتتخذه أداة لها فى تسعير نيرانها ، والكلام بلسانها . وهكذا كان شأن كبار الشعراء أو الشعراء النابهين الذين ظهروا فى إبان القلاقل السياسية ومايشبهها من فورات المجتمع فى الأمم كافة . والمعنى المقصود بهذه الملاحظة أن الخواطر الثورية فى الشعر الرفيع شىء والتحريض على الثورة شىء آخر .

ليس الشعر كالخطابة لأنه عمل فردى فى لبابه ، ولاسيما بعد ما ارتقى إليه الشاعر من الأطوار فى العصور الحديثة . ليس الشاعر اليوم بوقا من أبواق القبيلة ، يغنى لها ويرتل معها ويقوم مقام النائحة فى أحزانها ، والشادية فى أفراحها . ولكنه صاحب شخصية فردية لها من مزايا الحس وأدوات التعبير ما ليس لغيرها ، فهو لايستقر فى صميم البيئة الشعرية إلا حين يخلو بقريحته ، ويهضم الآثار النفسية لنفسه .

وقد تساءل العقاد غير مرة عن وظيفة الشاعر أو الفائدة التى ترجوها الأمم من الشعر فى حياتها الفردية والاجتماعية ، وردد كثيرون أن للشعر فائدة فى إيقاظ الهمم وإذكاء الشعور . ولكن العقاد حريص على أن يقول إن اشتراط الفائدة القريبة من كل مبحث وكل تفكير وخيم العاقبة . والفائدة لفظ مبهم يمكن أن يفسر ـ على كل حال ـ تفسيرات متباينة ، وهذا يسلم إلى الشك فى صلاحيته . وإذا اشترطنا فى كل ملاحظة أن تكون مفيدة ليومها ومكانها ذهب العلم ، وبطلت مباحث العلماء ، وركد التفكير والاختراع .

هذا شأن العلم ، فما ظنك بالشعر ؟ كيف تضبط فوائده وقتا لوقت ، وساعة بعد